الدراسات الاستشراقية وإسهاماتها في النقد الثقافي "إدوارد سعيد" نموذجا

ORIENTALIST STUDIES AND ITS PARTICIPATIONS TO CULTURAL CRITICISM "EDWARD SAID" AS A MODEL

بن قسمية الصالح*
Benguesmiasalah5@gmail.com
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم (الجزائر)

تاريخ الإرسال 2019/05/23 تاريخ القبول 2020/07/21 تاريخ النشر 2020/12/01

ملخص:

هذه الدراسة لا تحاول التّأسيس لنظريات أو أحكام جديدة، بل هي عبارة عن رؤية نقدية ثقافية معاصرة، حاولنا من خلالها إبراز الدّور الفعّال الذي قام به المستشرقون في حفظ التّراث العربي والإسلامي هذا من جهة .

من جهة أخرى حاولنا تقديم ادوارد سعيد كنموذج لمحلل وناقد قدّم إسهامات جليلة في نقد الفكر الاستشراقي، والتّأسيس لمبادئ النّقد الثّقافي والمقاربة الجمالية من خلال تطرّقه للنظرية الكولونيالية فالخطاب الاستعماري، وصولا في الأخير إلى صدى انتشار هذا الفكر عربيا وعالميا .

الكلمات المفتاحية: الاستشراق ; الثّقافة ; النّقد الثّقافي ; ما بعد الكولونيالية ; الخطاب الاستعماري ; المقاربة الجمالية.

Summary :

This study does not seek to establish new theories or judgments, but is a contemporary critical cultural vision,

In this way, we have tried to underline the effective role played by the Orientalists in the preservation of this Arab and Islamic patrimony.

On the other hand, we have tried to present "Edward Said" as a model of analyst, and critic who has made a great and significant participation to the critique of Orientalist thought, and in establishing the principles of cultural criticism. and from the aesthetic approach by its approach to the theory of colonialism, thus the colonial discourse, and finally in the propagation of this thought on the Arab and world level.

Keywords: Orientalism; culture ; cultural criticism; post colonialism; colonial discourse; aesthetic approach.

تعد الدراسات الاستشرافية من أهم الدراسات التي لاقت رواجا كبيرا على المستويين العربي والغربي على السواء، وان اختلفت غايات كل منهما .

ولئن كان الاستشراق في مراحله الأولى ذو طابع علمي ، فإنه أصبح في مراحله الأخيرة موسوما بغايات أخرى تحمل في طيّاتها نوعا من التشكيك في مصداقيتها ، ما جعل الحركة الاستشراقية الغربية في عمومها تشهد جملة من ردّات الفعل التي تحمل طابعا نقديا هدفه الكشف عن مرامي ومقاصد الفعل الاستشراقي.

* المؤلف المرسل

بالمقابل ومن باب إعطاء كل ذي حق حقه فإنه تجب الإشارة إلى فضل هؤلاء المستشرقين في حفظ التراث العربي والإسلامي، وعليه كان طرحنا للإشكالية على النحو التالي:

إلى أي مدى أسهم المستشرقون في حفظ التراث العربي والإسلامي؟ وكيف كانت مساهمة ادوارد سعيد كمحلل وناقد للاستشراق من خلال مشروعه النقدي والثقافي؟

الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي ، وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله أقصاه ووسطه وأدناه في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه[1] .

وهناك من يعرفها على أنها مصطلح يعني:" الدراسة الغربية للشرق، وهي حركة دراسة العلوم والأدب والثقافة الإسلامية، بهدف معرفة عقلية المسلمين وأفكارهم واتجاهاتهم وأسباب تفوّقهم وقوتهم "[2].

من هذا التعريف وذاك يتبيّن لنا جليا الدور الذي قام به هؤلاء المستشرقون في محاولة منهم معرفة الفكر العربي والإسلامي ، دون الإشارة إلى الهدف الذي كان يختلف دائما حسب المستشرق ونواياه من أهداف : علمية بحتة إلى أهداف تجارية فأهداف سياسية ودينية .....

لقد تمثلت جهود المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل في أعمال مختلفة تشكل في مجموعها كلّا واحدا ، ويمكن تلخيص هاته الأعمال فيما يلي :

1.أعمال المستشرقين وأهمّ جهودهم :

1. 1 التدريس الجامعي : يكاد يكون في كل جامعة أوربية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية ، بل ويوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق مثل : جامعة ميونيخ حيث يوجد بها معهد للغات السامية والدراسات الإسلامية، ومعهد لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى، ويرأس كل معهد أستاذ ويساعده بعض المحاضرين والمساعدين، وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي وتعليم العربية، وتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه ممن سيواصلون أعمالهم في المجال الاستشراقي الأكاديمي أو غيره من مجالات أخرى [3] .

ولم يقتصر التدريس الجامعي على الجامعات الأوربية بل أُنشأت العديد من المعاهد والجامعات والكليات في العالم العربي والإسلامي على غرار جامعة الجزائر عام1880 وكانت انطلاقتها الأولى بكلية الآداب، والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة(1880)، معهد الدراسات العليا في تونس(1945)، معهد الدراسات المغربية –الرباط–(1931)، المعهد الفرنسي بدمشق(1930)، مركز الدراسات العربية في الشرق الأوسط بلبنان، الجامعة الأمريكية ببيروت والقاهرة، مدرسة الدراسات الشرقية بالقدس، وقد درّس بهاته الجامعات العديد من المستشرقين وكانت محطّات للتدريس والمحاضرات من حين لآخر كما تأثر بها الكثيرون على غرار سانتانيا وكارلو نلينو الذي درّس الفلك والأدب بجامعة القاهرة، وكذا لويس ماسينيون حيث نجده درس في الجامعة المصرية(1913)، كما عُني بالآثار القديمة وتأثر بالتراث العربي والإسلامي.

2.1 جمع المخطوطات العربية: اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي، وكان هذا العمل مبنيا على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثا غنيا في شتى مجالات العلوم.

وكان بعض الحكام في أوربا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات

وقد ساعد العدد الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمة الدراسات العربية في أوربا وتنشيطها.

ومنذ الحملة النابليونية على مصر عام 1798 تزايد نفوذ أوربا في الشرق ، وساعد ذلك على جلب الكثير من المخطوطات[4].

وقد تمّ جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة ، وقد لقيت هاته المخطوطات في أوربا اهتماما عظيما ، وتمّ العمل على حفظها وصيانتها من التلف ، وفهرستها فهرسة علمية نافعة تصف المخطوط وصفا دقيقا ، وتشير إلى ما يتضمّنه من موضوعات وتذكر اسم المؤلّف وتاريخ ميلاده ووفاته وتاريخ تأليف الكتاب أو نسخه..... الخ[5].

3.1 التّحقيق والنّشر: لم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها، بل تجاوز ذلك إلى التّحقيق والنّشر.

فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث، وقابلوا بين النسخ المختلفة ، ولاحظوا الفروق وأثبتوها ورجّحوا منها ما حسبوه أصحّها وأعدلها، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام أثبتوها في أواخر الكتب التي نشروها ، وقاموا في بعض الأحيان بشرح بعض الكتب شرحا مفيدا .

يذكر نجيب العقيقي ومن لف لفّه:" أنّهم أخرجوا لنا ألوف الذّخائر مرتّبة مفهرسة ، تعتمد عليها جامعاتنا، ويرجع إليها علماؤنا "[6] .

وهكذا استطاعوا نشر عدد كبير من المؤلفات العربية وتحقيقها ومن ثَمّ طبعها نذكر منها على سبيل المثال: نشرهم لسيرة ابن هشام، والإتقان للسيوطي، والمغازي للواقدي، والكشّاف للزّمخشري، وتاريخ الطبري، وكتاب سيبويه، والاشتقاق لابن دريد، والأنساب للسّمعاني، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي.....[7] إلى غير ذلك من الكتب والمؤلفات العربية المهمّة، وعدد هائل من دواوين الشعر في عصوره المختلفة.

4.1 الترجمة : لم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضا بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوربية كافة ،فقد نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر والمعلقات ، وتاريخ أبي الفداء، وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ المماليك للمقريزي، وتاريخ الخلفاء

للسيوطي، والإحياء والمنقذ للغزالي، وغير ذلك من مئات الكتب في اللغة والأدب والتاريخ، والعلوم الإسلامية المتعددة، هذا فضلا عمّا تُرجم من مؤلفات العرب والمسلمين في الفلسفة والطب والفلك وغير ذلك من علوم.

وفيما يلي بيان تقريبي لعدد ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الأوربية حسب الإحصاء الذي قام به الدكتور حسن المعايرجى المهتم بموضوع ترجمات القرآن :

في اللغة الألمانية 14 ترجمة	في اللغة الفرنسية 11 ترجمة
في اللغة الإنجليزية 17 ترجمة	في اللغة الإسبانية 09 ترجمات
في اللغة الإيطالية 10ترجمات	في اللغة اللاتينية 07 ترجمات
في اللغة الروسية 10ترجمات	في اللغة الهولندية 06 ترجمات [8]

5.1 التّأليف: تعدّدت مجالات التّأليف في الدراسات العربي والإسلامية لدى المستشرقين ، وبلغ عدد ما ألّفوه عن الشرق في قرن ونصف(منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ستّين ألف كتاب . لقد ألّفوا في التاريخ العربي والإسلامي، وفي علم الكلام، وفي الشريعة، وفي الفلسفة الإسلامية، والتصوف الإسلامي، وفي تاريخ أدب اللغة العربية، وفي الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة، وفي النحو العربي، وفقه اللغة العربية.

ولم يتركوا مجالا من مجالات العلوم العربية والإسلامية إلّا وألّفوا فيه.

ونشير إلى بعض المؤلفات ذات القيمة العلمية كنماذج عن المؤلفات المفيدة رغم ما للبعض من مآخذ أو نقائص على هاته المؤلفات إلاّ أنّ قيمتها العلمية فاقت كلّ تلك النقائص، وجعلتها تشتهر بين الباحثين بل وصارت لا يستغنى عنها في مجال البحث في الدراسات العربية والإسلامية .

5.1 .1 تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان :

من تأليف كارل بروكلمان المستشرق الألماني (ت1956م)، وهو كتاب أساسي في الدراسات العربية والإسلامي، وقد قام بروكلمان بهذا العمل العظيم والضخم بمفرده، ولا يقتصر هذا الكتاب على الأدب العربي وفقه اللغة، بل يشمل كلّ ما كتب باللغة العربية من المدوّنات الإسلامية، فهو سجلّ للمصنّفات العربية المخطوط منها والمطبوع، رغم الإشاعات التي حاول البعض من المترجمين قولها عنه أو المآخذ أو النقائص .

وقد قام الباحث التركي المسلم "فؤاد سيزكين" تلميذ "هيلموت ريتر" بعد اكتشاف آلاف المخطوطات بإكمال عمل بروكلمان وذلك من خلال كتابه "تاريخ التراث العربي"بالألمانية، والذي ترجمه البعض إلى العربية.

2.5.1 المعاجم :

للمستشرقين باع طويل في مجال المعاجم والقواميس اللغوية، وكمثال عن هذا نذكر:

المعجم العربي – اللاتيني الذي ألّفه جورج فيلهلم فرايتاج (ت1861م) والذي لا يزال يستعمل حتى اليوم[9] .

بالإضافة إلى العديد من القواميس الصغيرة والكبيرة التي تجمع بين العربية وغيرها من اللغات الأوربية.

وحسبنا هنا أن نشير إلى معجم اللغة العربية القديمة المرتّب حسب المصادر، والذي قضى "أوجست فيشر"(ت1949م) نصف عمره حوالي 40عاما في تصنيفه وجمعه وتنسيقه بالتّعاون مع عدد من المستشرقين.

وكذا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذي يشمل كتب الحديث الستّة المشهورة، وقد تمّ نشره في سبعة مجلّدات ضخمة في الفترة من عام 1936م حتّى عام 1969م[10].

2. إسهامات إدوارد سعيد من خلال مشروعه النقدي والثقافي :

لقد شكّلت إسهامات "إدوارد سعيد" جهدا نقديا وفكريا متميّزا في رصيد النّظرية المتّصلة بحقول الدراسات الإنسانية، كما في إطار مقاربات وتحليل الأوضاع العالمية، ومجمل ما تفرضه متحوّلاتها من مهام على المثقّف بصورة عامّة، فقد مثلت تجربته الثقافية والنّظرية النقدية، وحتّى الشخصية نوعا فريدا من الارتحال من ثقافة إلى ثقافة، ومن مكان إلى مكان، ومن لغة إلى لغة حتّى أصبح مثالا يقتدى به للعالمية الثقافية والنّظرية .

1.2إسهامات ادوارد سعيد من خلال العدد الهائل من المؤلّفات والأعمال النقدية والأدبية

حين توفّي المفكر العربي الفلسطيني "ادوارد سعيد" في نيويورك سنة2003 خلّف وراءه اعترافا واسعا به كمنظّر فكري مؤثّر في الشّأن العام، فقد ترك خلفه مجموعة من الأعمال النّقدية والأدبية التي لا يزال صداها يتردّد حتّى يومنا وصل عددها حوالي 20 كتابا تُرجمت إلى أكثر من 10 لغات، وتدرّس حتّى في المعاهد والكلّيات الأمريكية والأوربية نذكر منها :

- جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية (1966م).
- البدايات، القصد والمنهج (1975م).
- الإستشراق (1978م).
- القضية الفلسطينية (1979م).
- تغطية الإسلام (1981م).
- العالم والنّص والنّاقد (1983م)[11].

بالإضافة إلى" بعد السماء الأخيرة"، " القلم والسيف"،" الآلهة التي تفشل دائما"، "خيانة المثقفين"، "الثقافة والمقاومة"، " متتاليات موسيقية"، "الثقافة والإمبريالية(1993م)"، "تمثيلات المثقف(1994م)"، "خارج المكان(1999م)"وهو عبارة عن مذكّرات تأمّلات"حول المنفى(2000م)"، " الأنسنة والنّقد الديمقراطي(2004م)".

2.2 إسهامات ادوارد سعيد من خلال أهمّ نظرياته الأدبية والنّقدية ذات الطّابع الثقافي

1.2.2 نظرية ما بعد الكولونيالية

ما بعد الكولونيالية، أو ما بعد الاستعمار هي نظرية من أهمّ النّظريات الأدبية والنّقدية التي رافقت مرحلة ما بعد الاستعمار .

وتُعرف هذه النّظرية مؤخّرا ب "الدّراسات ما بعد الاستعمار"، ويقصد بها : " الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا، وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت وطأة الاستعمار، مع ما تتضمّنه تلك الدراسات من تحليل للنّصوص الأدبية وغيرها للكشف عن استراتيجيتها الخطابية "[12] .

تعمل هذه النّظرية على فضح الإيديولوجيات الغربية وتقويض مقولاتها المركزية على غرار منهجية التّقويض التي جاء بها "جاك ديريدا" لتعرية الثقافة المركزية الغربية وفكّ أسسها الميتافيزيقية الصارمة .

وانصبّ اهتمام فكر ما بعد الاستعمار على تهميش الثقافة الغربية لباقي الثقافات الأخرى.

*يتداخل مصطلح "النّظرية ما بعد الاستعمارية" مع "الخطاب الاستعماري" تداخلا واضحا حيث يشير المصطلح الأخير (الخطاب الاستعماري) إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبّر عن توجّهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أنّ ذلك الإنتاج يشكّل في مجمله خطابا متداخلا بالمعنى الذي استعمله "فوكو" لمصطلح "الخطاب"[13].

*وأمّا المصطلح الثاني (النّظرية ما بعد الكولونيالية) فيشير إلى" نوع آخر من التّحليل ينطلق من فرضية أنّ الاستعمار التقليدي قد انتهى، وأنّ مرحلة من الهيمنة تسمّى أحيانا المرحلة الإمبريالية أو الكولونيالية – كما عرّبها بعضهم – قد حلّت وخلقت ظروفا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع معيّن "[14].

وهذا يعني أنّ المصطلحين ينطلقان من وجهات نظر مختلفة فيما يتّصل بقراءة التّاريخ، وإن كان ذلك الاختلاف لا يمسّ بالجوهر .

فالنّظرية "ما بعد الكولونيالية" تهدف إلى تحليل كلّ ما أنتجته الثقافة الغربية باعتباره خطابا مقصديا يحمل في طيّاته توجّهات استعمارية إزاء الشعوب التي تقع خارج المنظومة الغربية .

مرتكزاتها ومبادئها :

تقوم نظرية "ما بعد الاستعمار" في مجال الحقل الثقافي بصفة عامّة، وحقل النقد الأدبي بصفة خاصّة على جملة من المرتكزات الفكرية والمنهجية التي يمكن حصرها في المكوّنات والعناصر التّالية:

1/ إدراك ثنائية الشرق والغرب : حيث تحاول نظرية "ما بعد الاستعمار" فهم الشرق والغرب فهما دقيقا، وذلك برصد العلاقات التفاعلية الموجودة بينهما، سواء كانت إيجابية مبنية على التّسامح والتّعايش، أم مبنية على العدوان والصراع والتصادم الحضاري .

2/ تفكيك الخطاب الاستعماري: تهدف هذه النّظرية إلى فضح الخطاب الاستعماري الغربي وتفكيك مقولاته المركزية التي تعبّر عن الهيمنة والتّمييز العرقي والطبقي، وذلك باستخدام منهجية التشتيت والتّعرية والفضح.

3/ علاقة الأنا بالآخر : تركّز النّظرية على مناقشة علاقة الأنا بالآخر(الغير) حيث أنّ الآخر في أبسط صوره هو نقيض الذات أو الأنا، وقد ساد هذا المصطلح في دراسات الخطاب سواء الاستعماري (الكولونيالية) أو ما بعد الاستعماري[15] .

4/ مواجهة سياسة الغرب .

5/ الدفاع على الهوية الوطنية والقومية .

6/ غربة المنفى : يعيش أغلب المثقّفين الذين ينتمون إلى نظرية "ما بعد الاستعمار" منفيين أو لاجئين، ومن ثَمّ فهم ينتقدون مرّة بلدانهم الأصلية واقعها المتخلّف، ومرّة أخرى يرفضون سياسة التّهميش والتّمركز الغربي .

7/ تدبير الذات .

2.2.2 ادوارد سعيد وخطاب ما بعد الكولونيالية :

يُعدّ ادوارد سعيد من أهمّ محلّلي الخطاب الاستعماري، ومن أهمّ منظّري ما بعد الكولونيالية "فقد استطاع بمفرده أن يفتح حقلا من البحث الأكاديمي هو الخطاب الاستعماري، ذلك أنّ دراسته للخطاب الاستعماري خطاب تلتحم فيه القوة السياسية المهيمنة بالمعرفة والإنتاج الثقافي"[16].

حيث من خلال مجموعة من أهمّ كتبه نذكر منها كتابه"الإستشراق"1978م، نجده يستعرض تاريخ الاستشراق ومراحله التّطورية ابتدءا من القرن 18، وفي كتابه " العالم والنّص والنّاقد"1983م يدعوا إلى دراسة النّص في علاقته بعالمه الخارجي.

وانتقد "ادوارد سعيد" أنماط التّحليل النّصي التي تفصل النّصوص عن عالمها الموجودة فيه، ومن أهمّ كتبه التي تندرج ضمن الدراسة ما بعد الكولونيالية كتابه "الثقافة والإمبريالية"1993م.

حيث نجده في كتابه "الاستشراق" وهو خير مثال ونموذج عن نظرية " ما بعد الاستعمار" فقد ساهم في بلورة هذا الحقل الثقافي حيث يرى أنّ الاستشراق هو معرفة الشرق التي تضع كلّ ما هو شرقي في قاعة الدّرس أو في المحكمة أو في السجن أو في الدليل المصوّر، بهدف الفحص الدّقيق أو الدّرس أو إصدار الأحكام أو التّأديب أو تولّي الحكم فيه[17].

وهذا يعني: أنّ الاستشراق مظهر من مظاهر الهيمنة والسيطرة الغربية على الشرق، والعالم الغير الغربي بأسلوب غير مباشر ، وهذا ما يؤكّد بأنّ "الاستشراق خطاب، أو إنشاء، لكنّه خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع، بل يصوّر تمثّلات أو ألوانا من التّمثيل حيث تتخفّى القوّة والمؤسّسة والمصلحة، إنّه خلق جديد للآخر[18].

*وقد استند " ادوارد سعيد" في تحليله للخطاب الاستشراقي على رؤية ثقافية سياسية، قائمة على ثلاث خطوات منهجية:

- تفكيك المركزية الغربية.
- التمييز بين المعرفة الخالصة والمعرفة السياسية.

البعد الشّخصي الذي يجمع بين الموضوعية والذّاتية القائمة على الوعي النّقدي.

ويوصف كتاب "الاستشراق" بأنّه عمل قيّم مهّد السبيل لظهور عدد كبير من الكتب التي تبعته، وركّزت على تفحّص أشكال الخطاب الغربي، وتقنيات هذا الخطاب وطبيعة عمله ، وتصوّره لشعوب العالم الثالث " فالشّرق هو صورة المرآة المشوّهة للغرب"[19].

وباختصار شديد يعرف سعيد الاستشراق بأنّه : مؤسّسة تتعامل مع الشرق من خلال العبارات والرؤى السّلطوية، ووجهات النّظر والأوصاف التي تقوم بها، ومن خلال المعرفة الاستشراقية والأساس المنطقي للاحتلال الكولونيالي والإدارة التي توفرها [20].

3. النقد الثقافي والمقاربة الجمالية عند ادوارد سعيد :

يسعى النّقد الثّقافي إلى الكشف عما هو مخبّأ وراء الجمالي، ويندرج هذا الاتجاه فيما يعرف بخطاب ما بعد الاستعمار الذي يسعى إلى فضح وتعرية الممارسات والانحرافات داخل الخطاب الاستعماري المفخّخ بالإيديولوجية والنّزعة الاستعلائية العرقية، ولقد ظلّت المؤسّسة الإمبريالية الغربية تحرس بناءها الثقافي، وتذكّر بمقتضيات منظومته، ولا تسمح لأيّ كان بلمس مقدّساته، " فكلّ ثقافة فوقية تحاول عندما تعتلج بثقافة تعتقد بأنّها أدنى منها فرض نموذجها عن طريق الاستقطاب أو الاحتواء، وحينما تبوء محاولتها بالفشل، تبدّل استراتيجيتها بمحاولة استعمال القوّة والعنف"[21].

تلعب الأنساق الثقافية السائدة دور الهيمنة الواسعة في مختلف مجالات الحياة، وحتّى عالم الفنّ رغم ما يمكن أن يتّسم به من مظاهر الاستقلال الذّاتي إلاّ أنّه لم يسلم من انتهاكات الدولة / السلطة التي تسعى دوما إلى تكريس سياسة الخضوع والهيمنة، فكيف إذا تطرّق ادوارد سعيد إلى مفهوم النّقد الثقافي وتجلّي المقاربة الجمالية فيه ؟ وكيف قام بالتّعرية عن الجمالي وكشف الجانب القبيح فيه ؟

*عندما نبحث عن المسألة الجمالية عند ادوارد سعيد يجب علينا المرور عبر مفهوم "التّحليل الثّقافي" و"النّقد الثّقافي" وقد حدّد **ستيفن جرينبلات** معالم التحليل الثقافي بقوله: "في النّهاية لابدّ للتّحليل الثقافي الكامل أن يذهب إلى ما هو أبعد من النّص، ليحدّد الروابط بين النّص والقيم من جهة، والمؤسّسات والممارسات الأخرى في الثّقافة من جهة أخرى"[22].

يعتمد سعيد على القراءة الثّقافية لفضح النّص الإستشراقي، حيث تسعى القراءة الثقافية إلى إعادة قراءة النّصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التّاريخية والثقافية، حيث تتضمّن النّصوص في بناها أنساقا مضمرة قادرة على

المراوغة والتّمنع، ويتمّ كشف دلالاتها وإدراك حقيقة هيمنة تلك الأنساق المؤسّسة على فكرة الإيديولوجية، وهنا يأتي الحديث عن النّص الإستشراقي المهيمن عبر الأنساق الثقافية الإستشراقية، وإنتاج خطاب عنيف يعتبر الآخر في مستوى الهامش، بينما يبقى هو متربّعا على عرش المركز، ويكون الهامش دائما وأبدا تابعا ومشكلا من طرف المركز .

يهدف التّحليل الثقافي إلى مساءلة التّراث والتّاريخ أعراف المؤسّسات الثقافية، والأنساق الثّقافية مساءلة واعية بفعل الفحص القرائي النّقدي الذي يؤدّيه النّاقد المختلف على طينة ادوارد سعيد، حيث يعمد إلى الكشف عن الإفرازات والمخلّفات الثقافية لهذه المؤسّسة المتمثّلة في الاستشراق حيث يعترف بعدم براءة شعاراتها وخطاباتها.

يربط ادوارد سعيد الجمال بالنّقد الثقافي الذي يسعى إلى التّعرية عن التّجربة الثّقافية من خلال النّص المعبّر عن الجماليات متجلّيا في الواقع الدنيوي، ومرتبطا بالظروف التّاريخية والإنسانية، وهذا ما جعله يقول بـ دنيوية النّص .

4. انتشار فكر ادوارد سعيد عربيا وعالميا

1.4 عربيا

يُعدّ ادوارد سعيد من بين المفكّرين القلائل الذين ذاع صيتهم، واستطاعوا التّأثير على فكر غيرهم، حيث نجد من بين الذين تأثّروا بفكر ادوارد سعيد المفكّر السعودي "عبد اللّه الغذّامي" صاحب مشروع النّقد الثّقافي الذي نهل واستلهم منه .

ويُعتبر كتاب النّقد الثّقافي نقطة تحوّل هامّة في تفكير الغذّامي النقدي، إذ أنّه يعدّ قفزة نوعية في الانتقال من كشف الجمالي – الذي هو من وظيفة النّقد الأدبي – إلى كشف المخبوء في أقنعة هذا الجمالي، وهذا الاتجاه يندرج ضمن خطاب ما بعد الكولونيالية، والتي ينصبّ اهتمامها على فضح وتعرية الممارسات الخطابية الاستعمارية، والكشف عن انحرافاتها وتحيّزاتها الإيديولوجية والعرقية [23] .

وهنا يكمن التّأثير الكبير لإدوارد سعيد على الغذّامي من خلال سعيه إلى كشف المخبوء تحت الجمالي، والتّعرية عن ممارسات الخطاب الإمبريالي المنتج عبر المؤسّسة الثّقافية .

كما يمكن القول: أنّ ادوارد سعيد يبقى الملهم الأوّل للغذّامي في مساره النّقدي الثّقافي، وقد استشهد به في عدّة مناسبات ولقاءات فكرية، ولا يمكن أن نؤسّس لنقد ثقافي دون المرور بمنطلقات ادوارد سعيد الفكرية التي مهّدت الطريق لمختلف المفكّرين العرب الذين نهجوا طريق النّقد الثّقافي على غرار "حسن حنفي" الذي نهج هو الآخر طريق ادوارد سعيد في حقل الكتابة الاستشراقية، ولكن من منطلق الردّ على الغرب من خلال علم الاستغراب الذي يهتمّ بمعالجة ودراسة الفكر الغربي .كما نجد الكاتب السّوداني "طيب صالح" هو الآخر قد تأثّر بأفكار ادوارد سعيد، ويظهر هذا من خلال روايته "موسم الهجرة إلى الشّمال" التي تُعنى بحياة الشّرقي في موطن الغربي، وبالتّالي التّعرف على العلاقات التي ينسجها معه من منطلق التّقارب والاحتكاك به عن قرب .

2.4 عالميا

ترى النّاقدة والباحثة الهندية "غياتري سبيفاك" وهي أحد روّاد النّقد الثّقافي، أنّ الجهد الرّيادي الفردي لإدوارد سعيد نقل شؤون المستعمرة والإمبراطورية إلى مركز الصدارة في النّظرية الأدبية والثّقافية، وهي من بين النّقاد الذين تأثّروا بفكر سعيد، وهذه شهادة على عالمية فكر ادوارد سعيد .

كما نجد "زاكريه باتاك" و"ساسواتي سنغوبتا" و"شامله بوركايستا" كتبوا بحماسة عن الانتظار الطويل لوصول كتاب " الاستشراق " إلى أقسام الدّراسات الإنجليزية المغتربة في جامعة دلهي، فهنّ يعترفن كيف علّمهنّ كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد أن يدرسن أدبا لا يخصهنّ [24].

ونجد أيضا المفكّر الهندي "هومي بابا" ممّن تأثّروا بإدوارد سعيد، وممّن يدين كثيرا له من خلال المرجعية الفكرية في فكرة الهويّة ثمّ الهجنة رغم وجود تباين بينهما في بعض الأحيان .

أيضا المفكّر "شيلي واليا" الذي نجد أفكار ادوارد سعيد حاضرة بقوّة في مسيرته الفكرية حيث خصّص له كتابا بعنوان "ادوارد سعيد وكتابة التّاريخ" حيث تعرّض فيه إلى مجموعة من المحاور الأساسية في فكر ادوارد سعيد، كارتباطه بالمنفى، وكذا التزامات سعيد الفكرية والثّقافية، ومفهوم المثقّف وارتباطه بالنّضال والمشاركة السياسية، وكذا دور عامل التّاريخ في قراءة الأدب .

وكخلاصة لعالمية ادوارد سعيد، ولما سبق لا يسعنا إلاّ أن نعود إلى ما قاله تلميذه المفكّر "فخري صالح" حين لخّص في كتابه "ادوارد سعيد دراسة وترجمات" ملامح فكر ادوارد سعيد في أربعة نقاط مهمّة ألا وهي :

أوّلا: أنّ ادوارد سعيد كان من المفكّرين الإنسانيين البارزين الذين أعادوا قراءة التّاريخ المشترك السابق بعيدا عن الانفعال والأحكام المسبقة، من خلال مساءلة التّصورات القبلية القطعية للطّرفين عن الهوية والثّقافة ومفهوم التّاريخ، وإظهار النقص فيها .

ثانيا: أنّ ادوارد سعيد كان من الأوائل الذين اكتشفوا النظرة الدّونية للآخر في الرّواية الغربية المعاصرة، واكتشف دور القوّة في تكوين معرفة الغربي للشرقي، وهنا يكون ادوارد سعيد قد أنتج ما يضاهي أعمال فوكو في أركيولوجيا المعرفة، فهذا العمل قد فضح العلاقة الموجودة بين الإمبريالية الغربية والثّقافة التي تنتجها، وهذا المنجز لم يسبقه إليه أحد من قبل .

ثالثا: ادوارد سعيد قد ربط بين العمل الأكاديمي والعمل الميداني، فهو المدافع عن حقوق الفلسطينيين في الوجود، فقد وقف في وجه الاستعمار الصّهيوني والفكر الإقصائي باعتدال، جامعا بين الجانب النّظري كمثقّف، والممارسة الميدانية، وهذا ما ندر لدى الكثير من المفكّرين .

رابعا: انتماء ادوارد سعيد إلى عالمين المشرق مولدا ونشأة، وبريطانيا ثمّ أمريكا تعلّما وتعليما وعملا، قد يرشّحانه لبناء وجهة نظر توفيقية للعلاقة بين الغربي والشرقي [25].

حواشي البحث:

[1] – محمود حمدى زقزوق ، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المعارف ،القاهرة : 1997 ، ص18 .

[2] – السيد صالح سعد الدين ، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، ط1 ، مكتبة التابعين ، القاهرة : 1998 ، ص85 .

[3] – محمود حمدى زقزوق ، المرجع السابق ، ص61 .

[4] – المرجع نفسه ، ص63 .

[5] – محمود حمدى زقزوق ، المرجع السابق ، ص 63 .

[6] – عبد العظيم محمود الدّيب ، المستشرقون والتّراث ، ط2 ،دار الوفاء ، المنصورة : 1992 ، ص23 .

[7] – محمود حمدى زقزوق ، المرجع السابق ، ص 65 .

[8] – المرجع نفسه ، ص 66-67 .

[9] – رودى بارت ، الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ، ت : مصطفى ماهر ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة : 2011 ، ص 25 .

[10] – محمود حمدى زقزوق ، المرجع السابق ، ص 72 .

[11] – فريال جبوري غزول ، ادوارد سعيد : العالم والنص والنّاقد ، مجلّة فصول ، المجلّد 4 ، العدد 1 ،ديسمبر 1983 ، ص 186 .

[12] – ميجان الرويلي وسعد البازعي ، دليل النّاقد الأدبي ، ط 3 ،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب : 2002 ، ص 33 .

[13] – المرجع نفسه ، ص 158 .

[14] – ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المرجع نفسه ، ص 158 .

[15] – ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المرجع السابق ، ص 158 .

[16] – حفناوي بعلي ، مسارات النّقد ومدارات ما بعد الحداثة ،ط1،دروب للنّشر والتّوزيع ،عمان ، الأردن :2011 ، ص 258 .

[17] – ادوارد سعيد ، الإستشراق (المفاهيم الغربية للشرق) ، تر :محمد عناني ، ط1 ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة 2006، ص 97 .

[18] – سالم يافوت ،حفريات الإستشراق (في نقد العقل الإستشراقي) ، ط 1 ، المركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء : 1989، ص 8 .

[19] – وليام د.هارت ، ادوارد سعيد والمؤثّرات الدينية للثّقافة ، تر : قصي أنور الذّبيان ، ط 1 ، هيئة أبو ظبي للثّقافة والتّراث، الإمارات:2011 ،ص 102 .

[20] – المرجع نفسه ، ص 102- 103 .

[21] – وحيد بن بوعزيز،حدود التّأويل قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النّقدي،ط1،الدّار العربية للعلوم بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر: 2008،ص 233

[22] – ميجان الرويلي وسعد البازعي ، دليل النّاقد الأدبي ، المرجع السابق ، ص 80 .

[23] – فتحي منصورية،عبد الله الغذّامي وسلطة المرجع الغربي،موسوعة الفلسفة العربية المعاصرة،ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر :2014، ص 716

[24] – ليلى غاندي ، ادوارد سعيد ونقاده ، مجلّة الكرمل ، العدد 81 ،خريف 2004 ، ص 52 .

[25] – فخري صالح ، ادوارد سعيد دراسة وترجمات ،ط 1 ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ومنشورات الاختلاف ، الجزائر ،2009 ، ص 11 .